العنف والايدولوجيا..محاولة للفهم

محاضرة ألقيت في منتدى الثلاثاء الثقافي بتاريخ 21ربيع الأول1428هـ الموافق 8مايو2007م

عبدالله القفاري
كاتب

أتمنى في هذه الليلة أن أقدم رؤية قد لا تكون مختلفة، ولكن ربما تعبر عن هاجس أعيشه وتعيشونه أمام هذه الظاهرة الكارثة المدعوة بالإرهاب في محاولة للربط بين ما يعرف بالأيديولوجيا والظاهرة العنفية بكل أشكالها وتمظهراتها. وأستأذنكم أن أقرأ عليكم ورقتي لأستمع بعدها إلى مداخلاتكم، فأنا بحاجة حقيقية لإثارة الكثير من الأسئلة حول هذا الموضوع لإيماني بقصور الجوانب التي تقرأ هذه الظاهرة ما زالت جوانب قاصرة، وأنها لا تعطي الملامح الكلية التي تمكننا من الحكم عليها بدقة، أو على الأقل من الوثوق بأنا نحمل أحكامًا لها معنى تجاه محاكمة ظاهرة كالإرهاب.

بعد اكتشاف كل عملية إرهابية في الداخل، تشحذ الأقلام لإدانة الفكر الضال، وجماعات العنف والإرهاب مع الإشادة بالجهود الأمنية التي كشفت بعمليات استباقية نوعية تلك العمليات التي تستهدف التقويض وتحمل ذات الإصرار على مواصلة مشروعها التدميري، مع القليل أو الكثير من الحديث عن الجهود التي يجب أن ترافق المجهود الأمني ثقافيًا ووعظيًا وتربويًا لمحاصرة هذه الظاهرة المدمرة. وكل هذه المحاولات مقدرة للإسهام في مجهود مواجهة تلك الكارثة التي أصبحت تحاصرنا في كل المنطقة قلقًا وتعطيلًا.

المخططات الإرهابية التي أمكن كشفها، مازالت تعطي مؤشرًا إلى أن ثمة حربًا طويلة جدًّا ضد تلك المخططات، لكنها حتما ليست كافية لإنهاء خطره، ولن يكون الأسلوب الوعظي أو خطابات الإدانة والفتوى قادرة على درأه بالكامل.

وليست المملكة الوحيدة التي يستهدفها هذا المشروع التدميري والتقويضي، فقراءة سريعة في حال المنطقة العربية تؤكد أن مشروع العنف والإرهاب يتحرك من العراق إلى المغرب، وأن خطورته الحقيقة تكمن في انتظاره للانفجار في وجه الجميع. وأمام ما يحصل، لا يمكننا الوثوق بفكرة أن هناك تنظيمًا دوليًا يتحرك في المنطقة تحت عناوين المقاومة بالعنف، والانتحار المجاني، والنحر المتواصل، وإلا صار عملا أخطبوطيًا ضاربًا في عمق الخيال العربي الذي يميل إلى تصديق المعجزات، وحتى نفهم الواقع كما يجب، لا بُدّ من التوقف عند سمات المشهد العام الذي تتحرك فيه عمليات الإرهاب والعنف الانتحاري وسأوردها على شكل نقاط سريعة:

- تفجيرات الجزائر الأخيرة قبل بضعة أسابيع كانت إعلان تحول في أسلوب الجماعات التي خطت لها طريقًا للعنف ومقاومة السلطة منذ التسعينات. أي إدخال أسلوب وتفكير وطريقة عمل القاعدة في صلب مشروعها العنفي بعد أن كان مشروعًا معزولًا في الجبال النائية.
- عمليات المغرب اتخذت طابع التصميم على الانتحار حتى في شارع يخلو من المارة.
- في العراق وجبات يومية للانتحار والنحر لأكبر قدر من المارة، وحصد أرواح العابرين بغض النظر عن حالة الصراع التي خلّفها مشروع الغزو الأمريكي. ومن الواضح أجزم أن المسلسل مستمر حتى لو رحلت القوات الأمريكية، لأن ما حدث فعلًا هو توطين ثقافة النحر والتفجيرات الانتحارية.

ما يهمني إثارته هنا، هو أن مكمن الحقيقة في كل ما طرح

هو إمكانية إنتاج هذه الثقافة نفسها محليًا، مما يعني أن الحرب على الإرهاب سيطول أمرها في المنطقة وربما كانت لها أبعاد أكثر تعقيدًا من السابق. وحتى نفهم ذلك، لا بُدّ أولًا من فهم العوامل التي تلعب الدور الرئيس في خلق وتوجيه البيئات التي تنشط فيها هذه الجماعات وألخصها في عاملين، خارجي وداخلي، وللعامل الخارجي معنى في فهم هذه الظاهرة وبواعثها وتواصلها، وأما الداخلي فله الدور الأكبر في تكوين وقودها وجماعاتها وعناصرها.

وفهم هذين العاملين بحدّ ذاته يتطلب وعيًا سياسيًا بصراع القوة الدولية في المنطقة التي يمكن أن توظف هذه الظاهرة لصالحها من خلال وعيها بالبيئة الداخلية التي تنتج مقومات العنف وظواهره؛ ففي العامل الخارجي، يصعب على الكثيرين استيعابه ضمن المشهد اليومي، وهو أن ثمة صراع دولي على المصالح في هذه المنطقة يستتبع صراعًا خفيًا بين قوة تحاول أن تعزز مراكزها ونفوذها وربما تضرب بعضها البعض في المنطقة ولكن بيد الإرهاب الذي يمكن أن ينتج محليًا.

وقد يسأل أحدنا، لماذا الإرهاب وليس قوة أخرى؟ وأجيب بأنه القوة الكامنة، والضاغطة المهيئة تحت شعارات الجهاد في بيئة ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية تمثل حواضن مناسبة ومثالية لإفراز تلك المشروعات النهائية التي تتوسل المشروع الجهادي الانتحاري. لكن ثمة إخفاء لبقية ملامح الصورة، وهي ملامح تلعب فيها الأجهزة الاستخبارية في القوى الدولية والإقليمية الدور الأكبر.

في نظري، لا يمكن فهم ما يجري في العراق من مدد متواصل لحلقات العنف والتدمير والتفجير، وظاهرة الانتحاريين، والقتل بدم بارد على الهوية سوى من خلال فهم حلقات الصراع بين القوى الدولية والإقليمية على أرض أصبحت اليوم المكان المناسب لإثخان خصم كبير لكن على نهر من دماء العراقيين، وهنا تكمن

قيمة الوعي السياسي الغائب؛ الوعي الذي يدرك أساليب الدول الكبرى التي دخلت المنطقة منذ الحرب العالمية الأولى، حيث أنها ظلت تستخدم باستمرار مقومات القوى الكامنة في المجتمعات من خلال البعد العشائري أو القبلي ومراكز القوى التي تمثلها منذ لورانس العرب وحتى الانقلابات العسكرية التي كانت لها اليد الطولى في دعمها، حتى دخلنا مرحلة الانقلابات والانقلابات المضادة وانتهاء باستخدام البعد الديني أو الطائفي أو المذهبي اليوم لتحقيق أهداف لا علاقة لها بإنسان المنطقة، لكنها البيئة المثالية التي ظلت توظف اليوم لتحقيق أهدافها من حالة الصراع.

أي أننا أصبحنا بما نحمل من مقوّمات ثقافية، تعزز هذا المشروع التدميري وقود حرب، لن يجني ثمارها سوى الضالعون الكبار في مشهد لا نرى منه سوى ظلال الصورة، وليست الصورة الكاملة بأبعادها القادرة على خلق حالة وعي، بتنامي هذه الظاهرة واستفحالها وآثارها المستقبلية على المنطقة برمتها.

أما العامل الآخر والأكثر أهمية فهو العامل الداخلي الذي يمثل الحواضن المناسبة لبروز هذه الظاهرة، وللأسف الشديد يظهر هذا العامل عند معالجته أو تناوله في إطار ضيق، وضمن تصفية حسابات بين تيارات ثقافية لا تصل إلى مستوى أن تقدم مشروعًا حقيقيًا يعيد تركيب الصورة التي يمكن أن تشكل عوامل وحواضن للتطرف والعنف والإرهاب، وذلك بهدف فك الارتباط بين البيئة الحاضنة لهذه العناصر التي تشكل عوامل إنتاجها، وهي تتوسل اليوم المفهوم الجهادي الانتحاري وبين العامل الخارجي الذي أشرنا له سلفًا.

في المشهد الوطني، وعلى المستوى الداخلي، ينشط خطاب مواجهة ظاهرة الإرهاب وجماعات العنف الدموي التقويضي، من خلال استدعاء مصطلحات خالية من مفهوم دقيق أو محدد يمكن الركون إليه لفهم أسباب تنامي هذه الظاهرة القاتلة، ومقابل ذلك

يتم تجاهل العامل الخارجي الذي يؤكد أن هذا الفكر لا يمكن أن يعمل سوى من خلال بيئة مثالية، تغذيها حالة إحباط، أو اضطهاد، أو فقر، أو انعدام أمل في الحياة، أو انعدام واحتباس الأفق الوطني أمام أي نشاط له معنى الإنتاج، والحراك الطبيعي، أو فراغ الرؤية التي تمكن من تجسيد القدرة على الحراك، أو العمل المنتج، فيلتقط هذا الفكر عناصره من هذه البيئات الخانقة في لحظة تعانق فيها أيديولوجيا العنف فراغًا ذهنيًا تغذيه هذه العناصر حيث تبرز على السطح، والتي أعتقد أنها بيئات مثالية لخلق فرص نشوء تيارات العنف والتطرف والعدمية والعشوائية.

وهذا ما يظهر في القراءات التي حاولت فهم نشوء الظاهرة بين شباب المغرب في (أحياء الصفيح)، أو شباب (الحطست) في الجزائر، والذين انخرطوا في الجماعات التي اتخذت من العنف في الجبال طريقًا لمشروعها، وهو فهم يمكن تعميمه على كل المنطقة التي تتعرض لهذه الظاهرة مع بعض التفاوت الذي يمكن تلمسه بين بيئة وأخرى. وأتمنى حقيقة لو وجدت دراسات حقيقة عن حالات المتورطين في هذا المشروع من خلال قراءة في سجل حياتهم وعلاقاتهم وتاريخهم والبيئات التي أنشأتهم ومستوى تعليمهم ونوعيته وعلاقتهم بالمحيط الاجتماعي والأسري من حولهم. الأمر الذي ربما قدم فهما أفضل لمشروع لا يمكننا مقاومته وإجهاضه بمجرد وصمه بالضلال أو بالحديث عن الإسلام الذي تتبناه تلك الجماعات من خلال قيمه، ورحمته، وسماحته، وحرمته الدم.

إن براعة من يسمون أنفسهم اليوم بخبراء الجماعات الإرهابية تكمن في تسويق تاريخ تلك الأدبيات لا في بحث حالة عميقة تتداخل فيها عوامل شخصية وثقافية وبيئية وسياسية واقتصادية، حتى أصبحت في نظري ظاهرة انتهازية تسوق المشهد الإرهابي باعتباره إنتاجًا لعناصر قيادية وحيدة تعيش في جبال نائية بمعزل عن الحواضن الأساسية التي ساهمت بفعالية

في إنتاج عناصر العنف والإرهاب الدموي.

وما الحاصل إلا توظيف ثقافي وإعلامي يشهد مناوشات بين تيار الديني التقليدي ومجموعة خرج بعضها من عباءة ثقافة التطرف ووظفت إمكاناتها الشخصية لدعم المجهود في الحرب على الإرهاب لكن على طريقة المناوشات التي تأخذ طابع تصفية حسابات أكثر من كونها قراءة عميقة في فهم هذه الظاهرة.

وقد قيل أن الفكر لا يقاوم إلا بالفكر، وأن مقاومة ظاهرة الإرهاب لا تتم فقط من خلال المؤسسة الأمنية، فهناك مؤسسات التربية والتعليم، وهناك المناهج، والأوضاع الاقتصادية، كما أن للشروط الاجتماعية دورها أيضًا في تنامي هذه الظاهرة، إلا أن هذا كله لا يكفي لفهم أبعاد هذه الظاهرة أو محاصرتها، ناهيك عن مفاجأة إعادة إنتاجها محليًا بتوطينها في عقل جيل يعاني فراغًا ذهنيًا أدى إلى قلق ذاتي وإحباط يبحث عن الخلاص الذي غالبًا ما يأتي على يد مبشر لا يستغرب أن يكون مسيسًا ضمن حلقات أوسع من قصة خلاص روحي إلى استهداف نظام سياسي، وهذا ما نعني به البعد الخارجي الذي يوظف تلك القوى في صالح مشروع إنهاك لا مشروع بناء يعول عليه، وهو يحتوي تلك العقول الغضة والمتأزمة ليعطيها جرعة إيمانية بأنه لا سبيل للخلاص سوى بالتقويض وإعادة بناء المشروع الدولة الحلم فتفعل الأيديولوجيا فعلها القوي في تسكين أوجاع تعب جيل مرهق في لحظة حاسمة تعلقه بجنة موعودة حيث النصر أو الشهادة والراحة الأبدية.

وفي ذات السياق، وإذ نتأمل الواقع المحلي في الخمسينيات أو الستينيات، نفهم سبب انخراط جيل من الشباب السعودي في تنظيمات قومية أو يسارية. تلك الأدبيات التي عندما نقرأها اليوم، ندرك مدى ما عانوه من قلق، ونشعر بمدى الفارق بين تلك الرؤية ورؤية واقع اليوم. فغريزة الانتماء لفكر أو رؤية أو تنظيم أو حتى فريق كرة قدم هي مسألة معروفة لكل قارئ في علم النفس.

لم يكن آنذاك ثمة إسلام سياسي، ولم تكن هناك أفكار قادرة على صياغة مشروع أكثر اقترابًا من الواقع، وتحت إلحاح الدعاية القومية في تلك المرحلة وحركة اليسار السياسي وأدبياته الحالمة، أقبلت تلك العقول على استلهام فكرة والعمل من أجلها وربما حتى بدون مقومات الفكرة ذاتها أو حتى مجرد تفكير بمدى إمكانية نجاحها، وهي أيضًا دليل على أن القلق الذهني في عقل شاب متوقد لن تملأه سوى فكرة أيديولوجية تعطيه أمانًا نفسيًا بحالة خلاص أو إحساس بمعنى البقاء أو الفاعلية.

إبداعات ما يسمى بخبراء الجماعات الجهادية المحليين وصلت إلى مستوى الدعوة لتعليم الموسيقى كحل نظري في مواجهة ظاهرة العنف، لكن علينا أن نتذكر أن الذين فجّروا أنفسهم في المغرب كانوا من هواة موسيقى الراب، إلا أنهم كانوا يعيشون في مدن الصفيح ولم تكن البيئة الرسمية التعليمة تروج لمناهج نافية للآخر.

إن فهم هذه الظاهرة تدعو لفهم عقل شاب قابل للاستسلام لدعوة الجهاد وهو يعتنق تلك الأفكار في لحظة يأس حقيقة كامنة، لكنه لا يعطي للمعنى الاقتصادي أو التربوي أو النظام السياسي المعنى الكافي. إنه يتمسك بخيط الأمل الوحيد، بحالة خلاص عنوانها اعتناق فكر وإن كان ضالًا، لكنه يؤول إلى بواعث أو حواضن أو بيئات تفرخ النماذج القابلة للانهماك في لحظة ما في مشروع تدميري أو قاتل.

حالة الفراغ التي يعيشها الشاب حاضن جاهز لملأه بالفكر الوافد، فيتجاهل غريزة الانتماء في عقله المتوقد حماسًا ونشاطًا وقلقًا ويركّز على فكر آخر ضال وقوي في ذات الوقت، لا يمكن مواجهة هذا الفكر القوي إلا بفكر يضاهيه قوة يستطيع به تحقيق منجز حقيقي قادر على الحياة يمكن قياسه على أرض الواقع لا أن يكون مجرد كلام وعظي في الهواء وشعارات مضادة تقال في كل مناسبة.

الحديث عن سماحة الإسلام ورحمته وصيانته للدم والعرض والمال يجب أن يترافق مع مشروع يملأ عقل شاب بإمكانية تحقيق خطوات في طريق يجعله يؤمن أن ثمة طريقًا آخر للخلاص يضمن له إشباع هاجسه في العمل المنتج، وحقه الطبيعي بالاعتراف الاجتماعي به، وصيانة حقه في الحراك المثمر، وحفاظه على قيم يؤمن بها دون أن تكون ذريعة لإرهاقه بمزيد من العزف أو التهميش أو الحصار. وكلما ازدادت مساحة الأفكار المتداولة والعمل الحر في مؤسسات حقيقية قادرة على صياغة مستقبل أو مشروع وطني، كلما ضاقت مساحات العمل السري الذي طالما أخذ العنف وسيلة للبقاء والواجهة.

القبضة الأمنية في كل مكان قادرة على إخفاء التناقضات. لكنها لن يكون بوسعها محوها أو التخلص منها. لذا، قد تظل هذه التناقضات حالة كامنة تنتظر اللحظة المناسبة لتعبّر عن نفسها. وعلاجها المناسب يتمثل في نشاط الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وعناوين العمل في مشروع قابل للحياة يحمل صفة المشروع الوطني المنتج، ليكون ذلك مدعاة لفك الارتباط بين حالة إخفاء ويأس وبين مشروعات العنف الأمر الذي من شأنه أن يخفف ويحد من عوامل التذرع حول الحصن الأخير وهو الطائفة أو العشيرة، ليصبح الوطن مجالًا رحبًا لكافة أبنائه في عمل له صفة وطني لا صفة المذهبي أو العشائري.

هناك توقد حقيقي في عقول شباب يحتاجون إلى من يعطيهم الأمان والثقة في المستقبل بفكر قادر على التجاوب مع تطلعاتهم لأنفسهم ومجتمعاتهم، ولن يتم ذلك دون فك الارتباط بين الفكر الانتحاري وبيئاته الحاضنة له بتحصينه ضد فكرة الانتماء إلى أيديولوجيا قاتلة بتقديم بديل قابل للحياة.

مُنتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum